مختصر قصة التتار الجزء الرابع

الكاتب: موقع قصة الإسلام

تاريخ أبحاث

سقوط بغداد

اجتمع هولاكو مع كبار مستشاريه في مجلس حرب يُعَدُّ من أهم مجالس الحرب في تاريخ التتار، لقد أخذ القرار بغزو العاصمة (بغداد)، وكان مجلس الحرب معقودًا في مدينة همدان الفارسية (في إيران حاليًا)، وهي تقع على مسافة حوالي 450 كيلو مترًا من بغداد إلى الشمال الشرقي، وقرر هولاكو في هذا المجلس أن يقسِّم جيشه إلى ثلاثة أقسام: القلب، وسيقوده هولاكو بنفسه، والجناح الأيسر، وسيقوده (كتبغا) أفضل قواد هولاكو، أمّا الجيش الثالث؛ فكان هو الجيش التتري الرابض على أطراف الأناضول (في شمال تركيا الآن)، وعلى رأسه القائد التتري الكبير (بيجو).

ولم ينتبه الخليفة ولا قادته إلى تحركات التتار إلا بعدما صارت جيوشهم على مسافة خمسين كيلو مترًا من بغداد بعد أن سارت تلك الجيوش آلاف الكيلو مترات داخل الأراضي الإسلامية دون أن تتعرض لهجوم، أو مضايقات، أو حتى لاستطلاع المخابرات الإسلامية التي يبدو أنها لم يكن لها وجود.

وتم الحصار، وحَارَ الخليفة: ماذا يفعل وهو لم يعتد تلك المواجهات؟!!

وأشار عليه الوزير الخائن مؤيَّد الدين العلقمي الشيعي بالتسليم، ولكن في هذه اللحظة قام رجلان من خاصَّة الخليفة، وأشارا عليه بالجهاد، ووافق الخليفة رغم عدم سابق خبرته بالجهاد، ولا تفكيره فيه فضلاً عن استعداده له.

وكانت الهزيمة القاسية، والإبادة شبه الكاملة هي مصير تلك القوة الهزيلة التي تمكن مجاهد الدين أيبك من جمعها، ولم يصبح أمام الخليفة الذي لم يتعود الجهاد، ولم يعرف معنى العزة والكرامة إلا أن يستسلم لمن أوردوه المهالك؛ فاستجاب لنصيحة ابن العلقمي الغادرة بأن يذهب بنفسه لمفاوضة هولاكو.

خرج الخليفة للقاء هولاكو الذي اشترط استقدام العلماء والقادة والأئمة

https://murabet.com

والتجار وسائر الأعيان وأبناء الخليفة؛ فجاءوا معًا، فلما أتوا أُخِذوا جميعًا للقتل عدا الخليفة وسبعة عشر من الوفد منهم ابن واحد للخليفة؛ حيث قُتِل له ولدان أمام عينيه، وسيق الخليفة المستعصم مقيدًا ليدلَّ التتار على أماكن الأموال والذخائر والنفائس في القصور، ثم أصدر هولاكو أمره باستباحة بغداد أربعين يومًا كاملة، قتل فيها الرجال، وسُبِيت النساء واغتُصِبن، وقُتِل الرُّضَّع، ونُهِبت الأموال، وكان حصاد تلك الاستباحة مليون قتيل!! نَعَمْ مليون قتيل!!

وأمر هولاكو بعد ذلك بقتل الخليفة رفسًا بالأقدام؛ لتكون نهايته مهينة كما كانت حياته. وبعد ذلك اتجه فريق من أشقياء التتار لعمل إجرامي بشع، وهو تدمير مكتبة بغداد العظيمة، وهي أعظم مكتبة على وجه الأرض في ذلك الزمن، وهي الدار التي كانت تحوي عصارة فكر المسلمين في أكثر من ستمائة عام، وجمعت فيها كل العلوم والآداب والفنون.

لقد ألقى التتار بمجهود القرون الماضية في نهر دجلة، حتى تحول لون مياه نهر دجلة إلى اللون الأسود من أثر مداد الكتب، وحتى قيل إن الفارس التتري كان يعبر فوق المجلدات الضخمة من ضفة إلى ضفة أخرى!! [1].

هذه جريمة ليست في حق المسلمين فقط، بل في حق الإنسانية كلها!!

وبعد ذلك خرج الجيش التتري بكامله من بغداد لكيلا يصاب بالطاعون نتيجة الجثث المنتشرة في كل مكان، وأُعْلِن في بغداد أمان حقيقي، فلا يُقتل مسلم بصورة عشوائية بعد هذه الأربعين يومًا، وقد سمح التتار بهذا الأمان حتى يخرج المسلمون من مخابئهم ليقوموا بدفن موتاهم. كما أصدر هولاكو قرارًا بأن يُعيَّن مؤيَّد الدين العَلْقمي الشيعي رئيسًا على مجلس الحكم المعين من قِبل التتار على بغداد، على أن توضع عليه -بلا شك- وصاية تترية.

ولم يكن مؤيد الدين إلا صورة للحاكم فقط، وكانت القيادة الفعلية للتتار بكل تأكيد، بل إن الأمر تزايد بعد ذلك، ووصل إلى الإهانة المباشرة للرئيس الجديد مؤيد الدين العلقمي، ولم تكن الإهانة تأتي من قبل هولاكو، بل كانت تأتي من صغار الجند في جيش التتار؛ وذلك لتحطيم نفسيته، فلا يشعر بقوته، ويظل تابعًا للتتر!!

وقد رأته امرأة مسلمة وهو يركب على دابته، والجنود التتر ينتهرونه ليسرع

بدابته، ويضربون دابته بالعصا، فقالت له المرأة المسلمة الذكية: "أهكذا كان بنو العباس يعاملونك؟!".
وقد وقعت كلمات المرأة المسلمة الفطنة في نفس مؤيد الدين العلقمي، فانطلق إلى بيته مهمومًا مفضوحًا، واعتكف فيه، وركبه الهم والغم والضيق.
ولم يستطع الوزير الخائن أن يتحمل الوضع الجديد، فبعد أيام من الضيق والكمد، مات ابن العلقمي في بيته!! [2].
مات بعد شهور قليلة جدًّا من نفس السنة التي دخل فيها التتار بغداد، سنة 656هـ/ 1258م، ولم يستمتع بحكم ولا ملك ولا خيانة!! وليكون عِبْرة بعد ذلك لكل خائن، {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: 102].
وولَّى التتار ابن مؤيد الدين العلقمي على بغداد، فالابن قد ورث الخيانة من أبيه، لكنه مات في نفس السنة التي سقطت فيها بغداد سنة 656هـ/ 1258م!!
ترك هولاكو حامية تترية حول بغداد، وبدأ يفكر بجدية في الخطوة التالية، والخطوة التالية بعد العراق - لا شك- أنها ستكون سورية (الشام)، فبدأ هولاكو في دراسة الموقف في هذه المنطقة.
وبينما هو يقوم بهذه الدراسة، ويحدِّد نقاط الضعف والقوة في هذه المناطق الإسلامية، بدأ بعض الأمراء المسلمين يؤكدون على ولائهم للتتار، وبدأت الوفود الإسلامية الرسمية تتوالى على زعيم التتار تطلب عقد الأحلاف والمعاهدات مع (الصديق) الجديد، رجل الحرب والسلام: هولاكو!!
ومع أن دماء المليون مسلم الذين قتلوا في بغداد لم تجِفّ بعدُ، إلا أن هؤلاء الأمراء لم يجدوا أي غضاضة في أن يتحالفوا مع هولاكو؛ فالفجوة -كما يقولون- هائلة بينهم وبين هولاكو، والأفضل -في اعتباراتهم- أن يفوزوا بأيِّ شيء أفضل من لا شيء، أو على الأقل يحيِّدون جانبه، ويأمنون شره، {وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا} [النساء: 72].
ولا شك أنه كان هناك أيضًا من العلماء الوصوليين من يؤيِّدون خطواتهم، ويباركون تحركاتهم، ويحضون شعوبهم على اتباعهم، والرضا بأفعالهم.

وجاء الزعماء الأشاوس يجددون العهد مع (الصديق) هولاكو:

- الأمير بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل.
- الأمير كيكاوس الثاني، والأمير قلج أرسلان الرابع من منطقة الأناضول (وسط وغرب تركيا).
- الأمير الأشرف الأيوبي أمير حمص.
- الأمير الناصر يوسف (حفيد صلاح الدين الأيوبي) أمير حلب ودمشق.

وهؤلاء الأمراء يمثلون معظم شمال العراق وأرض الشام وتركيا. إذن لقد حُلَّت المشاكل أمام هولاكو، لقد فتحت بلاد المسلمين أبوابها له دون أن يتكلف قتالاً.

ولكن كان هناك أحد الأمراء الأيوبيين الذي رفض أن يرضخ له، ورفض أن يعقد معاهدات سلام مع التتار، هذا الأمير المسلم الذي ظل محتفظًا بمروءته وكرامته ودينه هو الأمير الكامل محمد الأيوبي -رحمه الله- أمير منطقة مَيَّافارِقين.

و(مَيَّافارِقين) مدينة تقع الآن في شرق تركيا إلى الغرب من بحيرة (وان)، وكانت جيوش الكامل محمد -رحمه الله- تسيطر على شرق تركيا، إضافةً إلى منطقة الجزيرة، وهي المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات من جهة الشمال. أي أنه يسيطر على الشمال الغربي من العراق، وعلى الشمال الشرقي من سورية؛ لذا أصبح إخضاع إمارة ميافارقين بالقوة أصبح لازمًا.

ومن هنا سيَّر هولاكو جيشًا بقيادة ابنه أشموط لحصار ميافارقين؛ فضرب عليها حصارًا كاملاً، ووقف الكامل محمد وشعبه وقفة المجاهدين، واستبسلوا في المقاومة، وفي الوقت الذي أرسل فيه الكامل محمد يطلب النجدة من أمراء المسلمين، لم يُجِبه منهم أحد، بل كان منهم من يقاتل في صفوف هولاكو ضده.

وظلَّت المدينة مستبسلة مدةَ ثمانية عشر شهرًا حتى سقطت، فقتل السفَّاح أشموط كل سكانها، وحرَّق ديارها، ودمرها تدميرًا، ولكنه احتفظ بالأمير

الكامل محمد -رحمه الله- حيًّا ليزيد من عذابه، وذهب به إلى أبيه هولاكو وهو في حصار مدينة حلب.
واستجمع هولاكو كل شره في الانتقام من الأمير البطل الكامل محمد الأيوبي رحمه الله، فأمسك به وقيده، ثم أخذ يقطع أطرافه وهو حي، بل إنه أجبره أن يأكل من لحمه!! وظلَّ به على هذا التعذيب البشع إلى أن أذن الله U للروح المجاهدة أن تصعد إلى بارئها.
وسقطت حلب بعد ذلك، بعد وعد بأمان زائف؛ فتح الأهالي على إثره أبواب المدينة لهولاكو، ولكنه أبادهم على بكرة أبيهم. وبينما كان جيش التتار يستعد للتوجه إلى حماة، جاء إلى هولاكو وفدٌ من أعيان حماة وكبرائها يقدِّمون له مفاتيح المدينة، ويسلمونها له دون قتال، وذلك برغبتهم وإرادتهم الذاتية، ودون طلب من هولاكو!! وقَبِل منهم هولاكو المفاتيح، وأعطاهم الأمان، ولكنه كان في هذه المرة أمانًا حقيقيًّا؛ وذلك ليشجِّع غيرهم على أن يحذوا حذوهم.
وجاء الدور على دمشق التي يحكمها الناصر يوسف الخائن، الذي أعلن الجهاد ضد التتار عندما طلب منه هولاكو أن يستسلم له استسلامًا كاملاً؛ فخشي على حياته، وأعلن الجهاد، ولكنها كانت دعوة زائفة من رجل اعتاد الخيانة، ولم يعتد حمل السيف. وقد انتهت تلك الدعوة الزائفة بالفرار عندما جاءت جيوش هولاكو، ووقع أهل دمشق في حيرة كبيرة، ماذا يفعلون؟!
وهنا اجتمع أعيان دمشق وكبراؤها، واتفقوا على أن يفعلوا مثلما فعل أهل (حماة)، فيأخذوا مفاتيح المدينة، ويسلموها إلى هولاكو، ثم يطلبوا الأمان منه، ولم يخالف هذا الرأي إلا قلة من المجاهدين قرروا التحصُّن في قلعة دمشق، والدفاع حتى النهاية.
وصدق ظن هولاكو عندما أعطى الأمان الحقيقي لأهل حماة؛ فإن ذلك دفع غيرهم من أهل المدن الكبرى لأن يفعلوا مثلهم. وخرج وفد من أعيان دمشق يستقبل جيش هولاكو، ويسلمه مفاتيح المدينة ومقاليد الحكم في دمشق.
في هذه الأثناء حدث أمر لم يكن في حسبان هولاكو في هذا التوقيت، لقد مات (منكوخان) زعيم دولة التتار، وجاءت الأخبار بذلك إلى هولاكو قبل أن يصل إلى دمشق؛ فلم يتردد هولاكو في أن يترك جيشه، ويسرع بالعودة إلى

https://murabet.com

(قراقورم) عاصمة التتار للمشاركة في عملية اختيار خليفة منكوخان، وترك هولاكو على رأس جيشه أكبر قواده وأعظمهم (كتبغا نوين)، وهو كما ذكرنا قبل ذلك من التتار النصارى.

وأسرع هولاكو بالعودة، حتى إذا وصل إلى إقليم فارس جاءته الرسل من (قراقورم) بأنه قد تم اختيار أخيه (قوبيلاي) خاقانًا جديدًا للتتار. ومع أن الأمر كان صدمة كبيرة لأحلام هولاكو، وكان على خلاف توقعاته، بل وعلى خلاف قواعد الحكم التي وضعها جنكيزخان قبل ذلك، إلا أنه تقبل الأمر بهدوء، وآثر أن يمكث في منطقة الشرق الأوسط، لا سيما وقد رأى الخيرات العظيمة في هذه المناطق، لكنه لم يرجع مرة أخرى إلى الشام، بل ذهب إلى تبريز (في إيران حاليًا)، وجعلها مركزًا رئيسيًّا لإدارة كل هذه الأملاك الواسعة. وتبريز إضافةً إلى حصانتها وجوها المعتدل، فإنها تتوسط المساحات الهائلة التي دخلت تحت حكم هولاكو حتى الآن، فهو يحكم بدايةً من أقاليم خوارزم التي تضم كازاخستان وتركمنستان وأوزبكستان وأفغانستان وباكستان، ومرورًا بإقليم فارس وأذربيجان، وانتهاءً بأرض العراق وتركيا والشام.

قرر القائد كتبغا أن يحتل فلسطين، فأرسل فرقة من جيشه، فاحتلت نابلس، ثم احتلت غزة، ولم تقترب الجيوش التترية من الإمارات الصليبية الأوربية المنتشرة في فلسطين، كما لم يقتربوا من إمارات الصليبيين في سورية ولبنان، وبذلك قُسِّمت فلسطين بين التتار والصليبيين.

وبهذا الاحتلال الأخير لفلسطين يكون التتار قد أسقطوا العراق بكامله، وأجزاء كبيرة من تركيا، وأسقطوا أيضًا سورية بكاملها، وكذلك أسقطوا لبنان، ثم فلسطين!! وقد حدث كل ذلك في عامين فقط!!

ووصل التتار في فلسطين إلى غزة، وأصبحوا على مسافة تقل عن خمسة وثلاثين كيلو مترًا فقط من سيناء، وبات معلومًا للجميع أن الخطوة التالية المباشرة للتتار هي احتلال مصر!!

أمَّا عن الوضع في مصر؛ فقد كانت تحت حكم المماليك، وكانت تعيش فترة اضطرابات في الحكم؛ فقد قُتِلَ الملك المعز عز الدين أيبك، وقُتِلت بعده زوجته شجرة الدر، ثم تولَّى الحكم السلطان الطفل المنصور نور الدين علي بن

https://murabet.com

عز الدين أيبك، وتولَّى سيف الدين قطز الوصاية على السلطان الصغير.
أحدث صعود الطفل نور الدين إلى كرسيِّ الحكم اضطرابات كثيرة في مصر، وكان أكثر الاضطرابات تأتي من قِبل بعض المماليك البحرية الذين مكثوا في مصر، ولم يهربوا إلى الشام مع من هرب منها أيام الملك المعز عز الدين أيبك، وقد قبض قطز على بعض رءوس الثورات المختلفة، فأسرع بقية المماليك البحرية إلى الهرب إلى الشام؛ وذلك ليلحقوا بزعمائهم.
وقطز -رحمه الله- وإن كان يدير الأمور فعليًّا في مصر، لكن الذي يجلس على الكرسيِّ سلطان طفل، ولا شك أن هذا كان يُضعِف من هيبة الحكم في مصر، ويزعزع من ثقة الناس بملكهم، ويقوِّي من عزيمة الأعداء إذ يرون الحاكم طفلاً.
وفي ضوء الخطر التتري الرهيب، والمشاكل الداخلية الطاحنة، واضطرابات وثورات المماليك البحرية، وأطماع الأمراء الأيوبيين الشاميين؛ اتخذ قطز القرار الجريء، وهو عزل السلطان الطفل نور الدين علي، واعتلاء قطز بنفسه عرش مصر.
حدث هذا الأمر في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة 657هـ/ 1259م، أي قبل وصول هولاكو إلى حلب بأيام. ومنذ أن صعد قطز -رحمه الله- إلى كرسيِّ الحكم وهو يُعِدُّ العُدَّة للقاء التتار.

الإشارات المرجعية:

١. د/فؤاد عبد المعطي: المغول في التاريخ 1/263-270. د/مصطفى طه: محنة الإسلام الكبرى ص177، 178.
٢. ابن كثير: البداية والنهاية 13/246.

https://murabet.com

المصدر:

موقع قصة الإسلام

الكلمات المفتاحية:

#التتار

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعنى بالضرورة تزكية الكاتب أو تبنى جميع أفكاره.

https://murabet.com